حنان

قصة تقلها هنري باربوس
تعلمها عن الفرنسية توفيق حنا

[مهداة الى الانسانة الطيبة الكريمة : جانين مونترو .. بطلة « الحي اللاتيني » اعجاباً وتقديراً]

٢٥ ستمبر ١٨٩٣ .

حبيبي لويس

وهكذا انتهى حبنا .. ولن يرى احدنا الآخر بعد اليوم. ثق بهذا ثقتي انا به. ما كنت تريد هذا.. بل كنت تريد ان تقبل كل شيء لنبقى معاً. ولكن كان يجب ان نفترق حتى تبني حياتك من جديد ... ولست آسفة اني قاومت في اصرار هذه الاشياء جميعاً : انت ، انا ، نحن ... وكنت تبكي وما اكثر ما بكيت وانت تدفن رأسك في فراشنا ثم وانت ترفع وجهك .. مرتين .. وجهك المضيء في ظلام الليل وحين لم اعد ارى دموعك وانما كنت احسها تدمي يدي .. نحن نتألم الآن المأ هائلاً .. رائعاً .. وان هذا ليبدو لي وكأنه كابوس .. وربما استغرق الانسان اياماً ليست بالقليلة لكي يفتقد شيئاً كهذا .. وربما ظل المرء حزيناً متألماً شهوراً ليست بالقليلة .. ولكن بعد هذه الشهور .. وهذه الايام .. يأتي دور النقاهة ، وعندئذ.. وعندئذ فقط ابدأ الكتابة اليك ما دمنا قد قررنا ان اكتب اليك بين الحين والآخر وعزمنا على ذلك عزماً وثيقاً ، وان هذه الرابطة التي تربطني بك ولا تربطك بي – اذ انك لن تعرف عنواني... ابداً – هذه الرابطة ستكون الشيء الوحيد الذي لا يحمل وداعنا اليماً مدمراً .

اقبلك قبلة اخيرة . اقبلك بكل ما في كياني من رقة وعذوبة .. اقبلك من بعد شاسع .. هادىء .. ملائكي !

*

٢٥ سبتمبر ١٨٩٤

حبيبي لويس

اعود اليك لاحدثك كما وعدت. ها قد مضى عام منذ افترقنا .. اني اعرف جيداً انك لم تنسني ، فما زلنا متآلفين متحدين حتى اني لاعجز عن مقاومة الالم والحزن اللذين يتملكاني ساعة افكر وساعة اذكر .

على ان هذه الشهور المديدة لم تذهب هباء... فهي قد اسدلت ستاراً من الأسف الحزين على الماضي الذي ولى ... انه مجرد ستار لا اكثر ... هي اشياء صغيرة بهتت واختفت مع تفاصيل كثيرة ... نعم ... اننا نلمس حين تبعث احدى هذه الاشياء لمحض الصدفة والاتفاق .. لقد حاولت ان اذكر ما ارتسم على وجهك من تعبيرات حين رأيتك لاول مرة .. ولكن لم اقدر تماماً على استعادتها ... فحاول انت مثلاً ان تذكر نظرتي الاولى... ستعرف حقاً كيف يلمس كل شيء في الوجود .

ذات يوم ابتسمت ... علام ؟ لمن ؟ ابتسمت ولكن لم ابتسم لواحد بعينه ولا لشيء بعينه ... انه شعاع مضيء لاح لي وانا في الطريق سائرة دفعني برغم شفتي الى الابتسام . لقد حاولت منذ وقت طويل ان ابتسم قليلا ولكن اتضح لي انها محاولة يستحيل اعادتها ... الا اني ابتسمت يوما .. كما قلت .. ابتسمت برغمي ... واني اريدك ان تذكر هذا الماضي الذي اسعدنا او الى المستقبل .. ثم ترفع رأسك وتبتسم .

*

١٧ ديسمبر ١٨٩٩

ها أنذا من جديد بالقرب منك ... يا حبيبي لويس ... الست كالحلم في ظهوري حين يسري الظهور . ولكني اظهر دائماً في اللحظة المناسبة ... وسط الظلام والفراغ ... اذهب واجيء بالقرب منك ولكن احداً لا يستطيع ان يلمسني ... ألست اذن حلماً من الاحلام !

ليس بي من التعاسة شيء .. لقد استعدت شجاعتي بفضل هذه الاصبحة الجديدة وهذه الفصول الجديدة وهذه الشمس تنشر الثقة والصداقة .. وحتى هذا الضوء الخافت الذي يملأ النهار يلوح لعيني ممتعاً جميلاً .

رقصت مرة .. ضحكت كثيراً .. كنت – اول الامر – اعد المرات التي كنت اضحك فيها .. ولكن زادت المرات حتى عجزت عن عدها .. وبالامس شاهدت عند المغيب حفلا .. كان الجمع يمتد .. ويمتد .. كحديقة جميلة ناضرة .. ورأيتني سعيدة وسط الجمع الباسم المرح السعيد .

اني اكتب اليك لاحدثك عن هذا كله ولأنهي اليك اني اعتنقت من اجلك ديناً جديداً هو « الحنان » .. لقد كنا نتكلم عنه فيما مضى دون ان ندري عنه شيئاً ذا بال .. ذا خطر .

فلنصل معاً حتى نعتقد ونؤمن بهذا الدين .

لنصل من اعماق قلوبنا ...

٦ يوليو ١٩٠٤

الاعوام تمر ... احد عشر عاماً ! لقد رحلت انا الى بعيد .. ولقد عدت .. وسارحل مرة اخرى .

لا شك انه قد اصبح لك منزل يا لويس ، يا من تقدم به العمر .. منزل يضم عائلة ... وان حياتك اصبحت من اجل هذه العائلة .. على جانب كبير من الاهمية .

كيف انت الآن ؟ اني اراك بعين الخيال .. ممتلىء الوجه .. عريض المنكبين .. قد اشتعل رأسك شيباً .. الا اني واثقة من ان وجهك ما زال – كمهدي به – يضيء لحظة الابتسام .. أليس كذلك يا لويس .. يا من تقدم العمر به ..

اما انا فلن اصف لك كيف تحولت الى عجوز .. نعم عجوز .. ان النساء يهرمن بسرعة .. اسرع من الرجال .. ولو قد قدّر ان اكون بجانبك الآن لبدوت بالنسبة لك كأم .. كان يعلن هذا ذلك المظهر الذي اضفته الشيخوخة على وجهي كما كان يؤكده ما يملأ عيني وانا انظر اليك ..

انك ترى كم كنا محقين في ان يترك احدنا الآخر هكذا .. ما دام قد عاد الهدوء ، وما دمت – وقد امسكت بهذا الخطاب في يدك قبل ان تفضه قد عرفت خطي بعد شيء من التفكير ..

*

٢٥ سبتمبر ١٨٩٤

حبيبي لويس

ها عشرون عاماً تمضي على فراقنا ... ها عشرون عاماً تمضي وانا من التراب ... وان عشت حتى تقرأ هذا الخطاب الذي ارسلته لك تلك الايدي الامينة النقية التي ارسلت لك – خلال هذه الاعوام الطوال – الخطابات الاخرى ... فسوف تكون قد سلوتني ... وحينئذ تغفر لي اني قتلت نفسي غداة فراقنا ... اذ لم اعرف كيف احتمل الحياة بدونك ... بعيدة عنك ! انه امس .. امس حين افترقنا .. انظر جيداً الى التاريخ الذي لا بد وانك لم تتمكن من قراءته جيداً على رأس هذا الخطاب .. انه

ليل والاحبة

لا .. لا تنامي
ولتوصدي باب الخيام
وتحفّزي للريح تلطم جبهة الخيمات ثائرة الصدام
الليل اوغل لا تنامي
خلف الخيام قطيع ذؤبان ظوامي
فهناك ثدي نازفٌ وهناك أثداء دوامي
وهناك جمجمة تطل ... تنزّ ما بين الركام
وهنا بقايا حشرجات لم تزل بين الحطام
صفراء قد يبستْ على شفة الظلام

*

لا .. لا تنامي
الريح اطفأت السراج وقهقهت خلف الخيام
وفراخك الزغب الصغار تراعشت مثل الحمام
وتكوّمت فوق الحصير .. تكوّمت مثل الحطام..
ناموا على جوع فما عرفوا هنا طيف ابتسام
وعلى خدودهمُ بقايا ادمع .. ورؤى قتام

*

لا .. لا تنامي
الليل أوغل لا تنامي
ضجّت مزاريب السماء وأعولت ملء الظلام
ومضى النهار السمح ذو الوجه الغلامي
وهناك في قبو الحياة هناك في دنيا الخيام
تمضي الحياة بلا ابتسام
تمضي كزفرة مومس ضاعتْ باهواء الظلام

*

نام الوجود ولم تنامي
وتوقفتْ في ناظريك دميعتان من الغمام
وهمست ثائرة الضرام :
يافا الجميلة لم تزل دنياك ماثلة امامي !
ولمحت ابراج الحمام
ومغارس الزيتون ملء غصونها الخضراء اسراب اليمام
وبكيت ثائرة الضرام ..
فمتى نعود الى الديار .. نعود من هذا الزحام ؟

القاهره

محيي الدين فارس

بالامس.. في غرفتنا .. حين كنت تبكي ورأسك مدفون في الفراش .. غارقاً في ضعفك وفي الملك . وكنت اراك خلالها .. طفلاً كبيراً ..

انه بالامس.. والليل مسدل استاره على الكون .. ونحن بالقرب من تلك النافذة التي كانت تطل على الفناء .. نصف مفتوحة .. حين انحدرت دموعك في غزارة .. على يدي. انه بالامس..حين كنت تصرخ .. وحين لم اقل انا شيئاً .. ولقد كافني موقفي هذا كل ما بي من قوة ..

واليوم .. كتبت على مائدتنا .. وسط اشيائنا جميعاً .. وسط هـذا الاطار الرائع الذي كان يضمنا .. كتبت الخطابات الاربعة التي استلمتهـا في فترات متباعدة ..وانتهيت من هذا الخطاب الذي به انتهى كل شيء....

وهذا المساء..ساعد كل شيء حتى تصلك هذه الخطابات في مواعيدها.. وساعد كل شيء حتى لا تراني ثانية ..

ثم اختفي من الحياة .. ومن العبث ان أقص عليك كيف سيكون اختفائي .. ان الحديث في هذه الاشياء الاليمة ربما يحز في نفسك .. حتى بعد هذه الاعوام الطوال ..

المهم بالنسبة لي هو اني افلحت في ان افصلك عني دون جراح او آلام.. وانما في حرص وفي حيطة وفي حنو وفي رقة .

انني اريد ان اعيش حتى ارعاك واعنى بك .

ليس هناك مجهود يعادل ما يبذله الانسان عند افتراقه عمن يحب . وانت برهافة حسك لا تحتمل هذا المجهود .

سوف امثل هكذا بالقرب منك مرات متباعدة . قليلة . . وسانطفيء شيئاً فشيئاً امام عينيك دون ان اؤلم قلبك الرقيق .. وحين اعلن لـك الحقيقة . . اكون قد كسبت وقتاً كافياً حتى لا تفهم فتحس فتتألم

يا الهي ! اني احس يا حبيبي لويس ما يعنيه موتي .

ان في هذا الحديث السامي معجزة رائعة . حديث اليوم .. حيـث نتحدث هذا الحديث الخافت الهامس من هذا البعد البعيد..اتحدث وتصغي.. انا ولم اعد الا انت .. وانت لا تذكر من كنت .. انا .. وحيث كلمة « الان » تختلف اختلافاً هائلاً لمن كتبتها ولمن يقرأها ..

والآن خلال هذا الامتداد الهائل من الزمان .. خلال الابدية .. ولو أن هذا يكاد يبدو سقيما . . عقيما . . اقبلك قبلة صادقة . . ثم اقف . . اذ لا اجرؤ . . خوف ان يكون الحزن ما برح يرهقني فاؤلمك اذ ذاك .. لا اجرؤ ان اعترف لك بكل ما يمكن ان يوحي الحب به من جنـون الحب العظيم وما يوحي به الحنان . . الذي هو اعظم .

القاهرة

نقلهـا الى العربية

توفيق حنا